إذْ الاسمّية

تقع إذ في بعض الأساليب العربيّة اسماً، وفى هذه الحالة، تحمل معنى الظرفية وتقع حرفاً لتحمل معانى أخرى ستتضح لنا عند التعرض لدراستها، ونتناول أولاً إذْ الاسمية، فإذا فرغنا منها نتناول بالبحث والدراسة إذْ بين الحرفيّة والاسمّية ثم إذْ الحرفّية.

أوّلاً : إذْ الاسميّة :

يذكر النحويون أن إذْ الاسميّة هي إذْ الظرفيّة، ويحتجّون لاسمّيتها: أنها تقبل التنوين مثل: يومئذٍ، وحينئذٍ، وقبولها التنوين دليل الاسمّية. ومما يؤكد اسميتها أنها تقع خبراً حينما تقول: إخلاصك إذ بدأ العمل، فـ «إذْ» في هذا المثال ظرف يعرب خَبراً للمبتدأ: «إخلاصك».

و يضيف النحّويون دليلاً ثالثاً على اسمّيتها، وهو الإضافة إليها كقوله تعالى : «بعد إذْ هديتنا»(٦)، وذلك لأن إذْ مضافة إلى الجملة الفعلية وهى: «هديتنا» والإضافة من خصائص الأسماء.

يقول السّيوطى مستدلاً على اسمية إذْ مانصّه: «والدليل على اسميتها قبولها: التّنوين، والاخبار بها، نحو: مجيئك إذ جاء زيد، والإضافة إليها بلا تأويل نحو: «بعد إذ هديتنا»(٧).

و ينصّ صاحب الجَنى الدانّى على اسمّيتها بدليل رابع يضيفه إلى الأدلة السّابقة وهو: «إبدالها من الاسم نحو: رأيتك أمس إذ جئت»(٨)، فـ «إذْ» في هذا بدل من «أمس»، والبدل يتبع المبدل منه.

لزوم بنائها :

وإذْ التي تحمل معنى الاسمّية أو الظرفيّة مبنّية على السّكون، ودليل بنائها مايأتي :

أ ــ وضعها على حرفين .

ب ــ افتقارها إلى الجمل التى بعدها .

جـ ــ افتقارها إلى التنوين المسمى : تنوين العوض الذي يقوم مقام الجملة مثل:(٩) يومئذٍ، حينئذٍ.

و يضيف ابن يعيش على هذه الأدلّة أدلّة أخرى ساقها ليقرّر في ضوئها بناء إذْ ، وهى في الحقيقة أدلة منطقية تقوم على التعليل، ومنهج التحليل. يقول ابن يعيش :

«فأما إذْ فإنها تقع على الأزمنة الماضية كلها، مبهمة لااختصاص لها ببعضها دون بعض، فاحتاجت لذلك إلى مايوضّحها. و يكشف عن معناها، وإيضاحها يكون بجملة بعدها، فصارت بمنزلة بعض الاسم، وضارعت «الذي» والأسماء الناقصة المحتاجة إلى الصّلات، لأن الأسماء موضوعة للدلالة على المسّميات، والتمييز بين بعضها و بعض، فإذا وجد منها مايتوقف معناه على مابعده حلّ مع مابعده من تمامه محل الاسم الواحد، وصار هو بنفسه بمنزلة بعض الاسم، و بعض الاسم مبنى، لأن بعض الاسم لايوضع للدّلالة على المعنى»(١٠).

و بهذا التحليل القوىّ أكّد ابن يعيش بناء إذْ.

والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن حول بناء إذْ هو: لماذا كسرت الذّال عند تنوين العوض القائم مقام الجملة؟

وذلك إذا قلنا : حينئذٍ، و يومئذٍ، لابدّ من كسر الذّال، فما السّر في كسر هذه الذال؟

جمهور النحويين يجيبون عن هذا التساؤل فيقولون : «وإنما كسرت الذّال لالتقاء السّاكنين»(١١).

ولتفسير رأى جمهور النحويين نقول: السّاكنان هما: سكون ذال «إذْ»، وسكون التنوين، فتُخلِّص من التقاء السّاكنين بكسر الذّال.

ومع هذا التفسير الواضح لكسر ذال إذْ عند الجمهور، فإن الأخفش له رأى آخر، فما رأيه؟ ذلك هو ماسنعرضه في النقطة التالية : ــ

رأى الأخفش :

لم يرتض الأخفش هذا التعليل السّابق لجمهور النحو يين، لأنه يرى أن كسرة إذْ ليست للتخلّص من التقاء السّاكنين، وإنما هى كسرة إعراب. ودليله في هذا الرأى أن: «إذْ إنما بنيت لإضافتها إلى الجملة، فلّما حذفت الجملة عاد إليها الإعراب فجرّت بالإضافة»(١٢).

ومعنى ذلك: أن إذْ بنيت لافتقارها إلى جملة تضاف إليها وهذا هو علة بناء إذْ عند الأخفش وغيره، فإذا ماحذف المضاف إليه، وهو الجملة وعوّض عنها التّنو ين، رجع الإعراب إلى إذْ ، فهى مجرورة في المثالين: يومئذٍ وحينئذٍ بإضافة يوم إليها، والمضاف إليه معرب مجرور، ذلك هو فَحْوى رأيه، وملخّص مذهبه. وهذا الرأى أو المذهب يحتاج إلى نقاش، وذلك ماسنتناوله في النقطة التالية :

مناقشة رأى الأخفش :

يبدو فى رأى الأخفش لأ ول وهلة، وجاهة التعليل، وقوّة الدليل، ولكن يحدّ من وجاهة التعليل، و يضعف من قوة التدليل هو أن سبب بناء إذْ في رأيه هو الإضافة إلى الجملة، والإضافة إلى الجملة ليست هى السبب الفّعال في بناء إذْ، فهناك أسباب أخرى للبناء سبق الحديث عنها كوضعها على حرفين، ولكونها ضارعت الأسماء الناقصة مثل الذّى كما تحدث ابن يعيش فيما سبق.

وقد قررنا سابقاً أن من أسباب بناء إذْ هو الافتقار إلى الجملة أى الحاجة إليها ليكمل معناها، وتتضح دلالتها كحاجة الموصول إلى الصلة وفرق بين الإضافة والافتقار، لأن كثيراً من الظروف معربة حالة الإضافة فلو كانت الإضافة هي السبب لبنيت هذه الظروف، فلو قلنا مثلاً:

سافرت يوم الخميس، فـ «يوم» ظرف معرب منصوب بالفتحة، وليس مبنيّاً بسبب الإضافة.

لهذا فإن المراديّ كان على حقّ في ردّه على الأخفش بقوله:

«إن سبب بنائها ليس هو الإضافة إلى الجملة، وإنما هو افتقارها إلى الجملة، والافتقار عند حذف الجملة أبلغ، فالبناء حينئذ أولى»(١٣) وردّ المرادي يحتاج إلى ايضاح بالنسبة للقارىء غير المتخصص حتى يعم الانتفاع بهذا البحث في أسلوب نحن في أشد الحاجة إلى معرفته، وكشف معانيه وذلك لتكراره في فن الكتابة، وفنّ القول معاً، كما سبقت الإشارة الى ذلك.

يدور رأى المرادى في البناء حول الافتقار، وإذْ لأنها من الظروف المبهمة تحتاج إلى إيضاح يوضح هذا الابهام، ويحدّ من غموضه. ومن هنا كانت الحاجة ماسّة إلى جملة تليها، لتكشف عن إبهامها، وكان سبب الافتقار إلى الجملة التى بعدها هو سبب البناء، فعند حذف الجملة، والتعويض عنها بتنوين العوض، رجع إليها الغموض مرة أخرى، وان كان في هذه الحالة أقل لقيام التنوين مقام الجملة، ولهذا فإنها في حالة افتقارها إلى الجملة بُنِيتْ، وزاد الافتقار أكثر عند حذف الجملة، فكان البناء أولى، لأن الافتقار إلى الجملة عند عدم وجودها أبلغ من الافتقار إلى الجملة حالة وجودها.

وردّ المراديّ في الواقع على الأخفش ردّ فلسفيّ منطقيّ.

وإذا كان الأخفش لايذعن لهذا الردّ مع أنه سلك مسلك الفلسفة والمنطق في رأيه حيث قررّ أن من أسباب البناء الإضافة إلى الجملة فإذا مازالت الإضافة زال البناء، وكان ردّ المرادى من جنس ماذهب إليه الأخفش حيث التزم مثله مسلك الفلسفة والمنطق ــ فإن هناك أدلة أخرى تقوم على السّماع والرواية بعيدة عن منطق الفلسفة والتعليل.

من هذهالأدلة : قول أبى ذؤيب الهذليّ :

نهيتُكِ عن طِلابك أمَّ عمرٍو بعاقبةٍ وأنت إذٍ صحيحُ(١٤)

وموطن الاستشهاد بهذا البيت هو كسر ذال: إذْ مع التنوين،

ولاموجب للكسر غير التقاء الساكنين، فليس لـ «إذْ» مضاف تضاف إليه، وتجرّ بسببه بالكسر كما كانت شبهة ذلك محققة في يومئذٍ، وحينئذٍ، لوجود المضاف فيهما وهو يوم، وحين.

ومن هذه الأدلة أيضاً في الرّد على الأخفش ونقده هذا التحليل الرائع الذي ذكره ابن جنى في معرض ردّه على الأخفش، وتعليقه على كسر «إذٍ» في البيت السابق، وهو تحليل يحمل في طيآته قوة الدليل، ووضوح الحجة، وسلامة البرهان يقول ابن جنىّ:

«ومن وجوه التنوين أن يلحق عوضاً من الإضافة نحو: يومئذ، وليلتئذ، وساعتئذ، وحينئذ، وكذلك قول الشاعر:

* وأنتِ إذٍ صَحِيحُ *

ألا ترى أن «إذ» ليس قبلها شيء، فأما قول أبى الحسن ــ [يعنى الأخفش] ــ: إنه جرّ «إذٍ» لأنه أراد قبلها: «حين» ثم حذفها، وبقّى الجر فساقط، الا ترى أن الجماعة قد أجمعت على أن: إذْ، وكمْ، ومَنْ من الأسماء المبنيّة على الوقف.

وقد قال أبوالحسن نفسه ــ من بعض التعاليق عنه في حاشية الكتاب: بَعَد كمْ، وإذْ من التمكن أن الاعراب لم يدخلها قط، فهذا تصريح منه ببناء إذْ، وهو اللائق به، والأشبه باعتقاده، وذلك القول الذي حكيناه عنه شيء قاله في كتابه الموسوم بمعانى القرآن، وإنما هو شبيه بالسهو منه»(١٥).

ولم يكتف ابن جنى بهذا التحليل الرائع في استدلاله على بناء «إذْ» بل ذهب يلتمس الدليل تلو الدليل، ليقوى رأيه، و يدافع عن فكره حتى يبلغ مايريد. يقول ابن جنى: «و يؤيد ماذكرته من بناء إذْ أنها إذا أضيفت مبنية نحو قوله: «إذِ الأَغْلاَلُ فى أَعْناقِهِم»(١٦)، «وإذْ يَرفَعُ إبْراهِيمُ القواعِدَ من

البيت(١٧) فـ «إذْ» في هذا ونحوه مضافة إلى الجمل، وموضعها نصب، وهى كما ترى مبنيّة.

فإذا كانت في حال إضافتها إلى الجمل مبنيّة من حيث كانت الإضافة أن تقع على الإفراد فهى اذا لم تضف في اللفظ أصلاً أجدرُ باستحقاق البناء. و يزيدك وضوحاً قراءة الكسائيّ: «من عذاب يَوْمَئِذٍ»،(١٨) فبنى على الفتح لما أضافه إلى غير متمكن».

ويختم ابن جنىّ أدلّته بدليل يردّ به سؤال معترض على بناء إذْ لتوهّم قام في نفسه، وفهم خاطىء استبد بعقله، فيقول:

«فإن قيل : بنيت إذْ من حيث كانت غاية منقطعاً منها ماأضيفت إليه أو من حيث إضافتها إلى جملة تجرى الإضافة إليها مجرى لا أضافة، فهلا أعربت لما أضيفت إلى المفرد من نحو قولهم: فعلت إذ ذاك؟ قلت: هذه مغالطة، فإن «ذاك» ليس مجروراً بإضافة إذْ إليه، وإنما «ذاك» مبتدأ حذف خبره تخفيفاً، والتقدير: إذ ذاك كذلك، فالجملة هى التي في موضع جرّ»(١٩).

من هذه النصوص التي سجلها ابن جنى يتأكّد بناء إذْ ، وهى كما قلت، نصوص تحمل في طياتها قوة الدليل، فـ «إذ» كُسرت ذالها في بيت الشاعر لالتقاء الساكنين، لأنها ليس قبلها شيء يوجب جرّها.

و بناء إذْ أمر اعترفت به الجماعة و يعنى بها، جماعة النحو يين أو بعبارة أخرى جمهورهم، لأنها مثل مَنْ، وكمْ من حيث البناء على الوقف، ولايستطيع أحد أن يقول: إن كم معربة حينما يدخل عليها جرّ مثل قولهم: بكمٍ درهم اشتريت لأنها باقية على سكونها وكذلك القول في مَنْ إذا دخل عليها جارّ.

على أن سهم النقد كان نافذاً حينما وجهه إلى الأخفش حيث رماه بالسّهو والغفلة، لأنه علق في حاشية الكتاب معترفاً ببناء إذْ ، فكيف إذاً يدّعى بعد ذلك أنها معربة مجرورة بالكسرة على تقدير ظرف مضاف محذوف قبلها في بيت أبى ذؤيب؟

ولم ينس ابن جنى أن يبينّ منطقياً أن إذْ حين إضافتها إلى الجملة تكون مبنية فمن باب أولى إذًا يقوى البناء حينما تنقطع هذه الجملة عنها.

و يـؤيـد ابـن جنى رأيه بقراءة الكسائى التي أشرنا إليها في نصه السابق حيث بنى «يوم» من قوله تعالى: «من عذاب يَوْمَئذٍ» على الفتح، لأنه مضاف إلى إذْ وهـى غير متـمـكـنـة، وغير تمكنها يوجب لها البناء الذي اكتسبه الظرف (يوم) المضاف إلى (إذْ) لقوّه إذْ في البناء.

على أنـنـا نستطيع أن نضيف إلى الأدلة السابقة في بناء إذْ غير شاهد أبى ذؤيب، وغير الأدلة التى سجّلها ابن جنى في ردّه على الأخفش نستطيع ان نضيف دليلا آخر وهو «أن بعض العرب يفتح الذال تخفيفاً فيقول: حينئذًا (٢٠).

ومـعـنـى ذلك: أنها لو كانت معربة بالإضافة كما يدّعى الأخفش، لما فتحت ذالها، لأنها في موقع المضاف إليه، والمضاف إليه مجرور دائماً.

ولانـنسى قـبـل أن نـتـرك الحـديـث في بناء إذْ أن نذكر أن بعض العرب يبنون الظرف المضاف إلى إذْ ، لأنه اكتسب البناء منها.

وفي ضـوء هـذا يقرر ابن السّراج في الأصول مانصه: «وأسماء الزمان إذا أضـيـفـت إلى مـبـنىّ جاز أن تعر بها، وجاز أن تبنيها، وذلك نحو: يومُئذ بالرفع، و يومَئذٍ بالفتح»(٢١)

ومـعـنـى ذلك جواز إعراب «يوم» على حساب العامل كأن تقول: هذا يـومُـئذ، بالرفع على الخبريّة، وجواز الفتح على البناء كأن تقول: هذا يومَئذٍ بالبناء على الفتح للإضافة إلى مبنّى.

و يـقـوىّ رأى ابـن الـسّراج قراءه «يوم» بالجرّ على الاعراب، والفتح على البناء فى قوله تعالى «لويَفْتدى من عذاب يَوْمَئذٍ ببنيه»(٢٢).

قـال الـفـخـر الـرازى : «قـرىء (يـومئذ) بالجرّ والفتح على البناء لسبب الإضافة إلى غير متمكّن»(٢٣).

و ينسب أبو حيان الأندلسي في كتابه «البحر المحيط» قراءة الجرّ إلى الجمهور، وقراءة الفتح إلى أبي حيوة(٢٤). ونسبت إلى الكسائي أيضاً في بعض المراجع.(٢٥) و يلاحظ هنا أن الظروف الزّمانية المضافة إلى «إذْ» مسموعة في: «يوم» و «حين» وذلك بسبب اشتراكهما مع «إذْ» في الإضافة إلى الجمل.

غير أن البغداديّ في الخزانة ينقل إلينا خبراً مؤدّاه أنه قد: «وجد بخط صاحب القاموس تركيب هذه الظروف مع إذْ، قال: لايضاف إلى إذْ من الظروف في كلام العرب غير سبعة ألفاظ ، وهي: يومئذ، وحينئذ، وساعتئذ، وليلتئذ، وغداتئذ، وعشيتئذ، وعاقبتئذ. قيل: ومقتضاه أنه لايقال : وقتئذٍ، ولاشهرئذٍ، ولاسنتئذٍ.

وقد روى: أوانئذ في شعر الداخل بن حرام الهذليّ قال:

دَلَفْتُ لها أوانئذٍ بِشُهْمٍ وحلَيفٍ لم تَخَوِّنْهُ الشُّروجُ (٢٦)

و يفسّر البغداديّ معنى البيت فيقول :

«والدليف : سيرٌ فيه إبطاء. وحليف: حديد. وتخوّنه: تنقصه، والشروج: الشقوق والصدوعُ»(٢٧).

وبعد، فنكتفي بهذا القدر من الحديث في بناء إذ لننتقل بعد ذلك إلى الحديث عن ظرفيتها.

ظرفيّة إذْ ولزومها:

هل تخرج إذْ الاسمية عن الظرفيّة فتتصرف بمعنى أنها تعرب مبتدأ أو فاعلاً، أو مفعولاً ؟

ينصّ السّيوطيّ في الهمع على أن إذْ الظرفية لا «تتصرف بأن تكون فاعلة أو مبتدأ»(٢٨).

على أن الزمخشريّ في الكشاف عند تعرّضه لتفسير قوله تعالى: «لقد منّ اللّهُ على المؤمنين إذْ بعَثَ فيهم رَسولاً من أنْفُسِهم،(٢٩)، ذكر أنه قرىء : «لَمِنْ

منّ اللّه على المؤمنين إذْ بعث فيهم»(٣٠)، وبينّ الزمخشريّ أنه في ضوء هذه القراءة يجوز أن تكون إذ «في محلّ الرّفع كـ «إذا» في قولك: أخطب مايكون الأمير إذا كان قائماً، بمعنى: لِمنْ مَنّ الله على المؤمنين وقت بعثه»(٣١).

والناظر في نص الزمخشريّ يرى أنه فى هذه القراءة تقع إذْ خبراً، ووقوعها خبراً يجعلها متصرّفة، وهو في هذا الرأى قاس إذْ على إذا، لأن إذا في رأيه تقع خبراً في قولهم: أخطب مايكون الأمير إذا كان قائماً».

والواقع ان الزمخشرى خانه التعبير، أو بعبارة أخرى جانبه التوفيق في هذا التقدير، لأن أصل القول السائد هو: أخطب مايكون الأمير قائماً. فـ «قائماً» في هذا القول نصب على الحال، وتقدير القول هو كما قال الزمخشرى: «أخطب مايكون الأمير اذ كان أو إذا كان قائماً، فـ «إذ» عند إرادة المضى، وإذا عند إرادة الاستقبال، «وقائماً» في القول السائد عند النحويين حال سدّت مسدّ الخبر الذي حذف وجوباً في هذا الموضع، لأن المبتدأ اسم تفضيل مضاف إلى المصدر المؤول، وفى هذه الحالة تقوم الحال مقام الخبر الذي يحذف وجوباً في هذه الحالة، وتقدير الخبر المحذوف: إذ كان أو إذا كان، وعامل الحال هو ضمير كان التامّة، والحال هنا لا تصلح أن تكون خبراً للمبتدأ الذي هو اسم تفضيل، فـ «قائماً» على هذا التقدير قامت مقام «اذ كان» لأن في الحال معنى الظرفية كما يقول الصّبان، لأنّ «معنى لقيت زيداً راكبا: لقيته في وقت الركوب، و«إذ كان» سدّ مسد المتعلق الذى هو الخبر في الحقيقة كسداد بقية الظروف مسدّ متعلقاتها العامّة»(٣٢).

ولا أدرى لماذا يقيس الزمخشرى إذ على إذا، فالموضع في المثال المذكور صالح لإذ، وإذا معاً، فـ «إذ» كما قلنا: عند إرادة المضى، و«إذا» عند إرادة الاستقبال، فالمثال صالح للمعنيين.

على أن المثال الذى ذكره الزمخشرى لايتكلم به، لأن الخبر محذوف وجوباً أى أنه لايقال في العربيّة: أخطب مايكون الأمير إذا كان قائماً، وإنما القول المنسوب إلى العرب: أخطب مايكون الأمير قائماً.

ولله درّ ابن هشام فقد راعه هذا الخطأ التقديرى، كما راعه أن ينسب إلى العرب قولاً لم يقولوه.

قال ابن هشام معقباً على رأى الزمخشرى في تقديره لهذه القراءمانصه: «ولانعلم بذلك قائلاً. ثم تنظيره بالمثال غيرمناسب، لأن الكلام في إذْ لافي «إذا»، وكان حقه أن يقول: إذْ كان، لأنهم يقدّرون في هذا المثال ونحوه «إذ» تارة، و«إذا» أخرى بحسب المعنى المراد، ثم ظاهره أن المثال يتكلّم به هكذا، والمشهور أن حذف الخبر في ذلك واجب، وكذلك المشهور أن إذا المقدّرة في المثال في موضع نصب، ولكن جوّز عبدالقاهر كونها في موضع رفع تمسّكاً بقول بعضهم:

أخطب مايكون الأمير يومُ والجمعة بالرفع، فقاس الزمخشرىّ «إذْ» على إذا، والمبتدأ على الخبر»(٣٣).

وإذا كانت إذْ لا تقع مبتدأ أو فاعلاًو وإنما هى محصورة في الظرفية عند جمهور النحو يين، فهل تقع مفعولاً به؟ وذلك ماسنجيب عنه في النقطة التالية:

هل تقع إذ الاسمية مفعولاً به؟

الناظر لكتاب سيبو يه يرى أن «إذ» الاسمّية لاتخرج عن الظرفّية في رأيه. يقول: «وإذ وهى لما مضى من الدّهر»(٣٤)، ومعنى ذلك أنّ إذ الاسمّية عند سيبو يه لاتخرج عن الظرفّية، ولكونها ظرفاً فإنها لا تعمل شيئاً فيما بعدها كما تعمل إنْ الشرطّية، ولهذا، فإن دخولها على الاسم أولى بها من دخولها على الفعل. قال سيبو يه: «فتركت الأسماء بعدها على حالها كأنه لم يذكر قبلها شيء.. إذْ كانت لا تغّير مادخلت عليه»(٣٥).

و يتبع نهْجَ سيبو يه في ظرفية إذْ الجمهورُ قالوا: «لا تكون إلاّ ظرفاً نحو: «فَقَدْ نَصَرهُ اللّهُ إذ أخْرَجَهُ الّذين كفروا»(٣٦)، ومضافاً إليها الظرف كقوله تعالى: «بَعْد إذْ هَدَيْتنا»، (٣٧)، «يومئذ تحدّث أخبارها»(٣٨)، «وأنتم حينئذ تنظرون»(٣٩).

وفي رأيي أنّ حضر إذْ في الظرفية فقط حجر على الاتساع في المعانى وتضييق على التنوّع في الأساليب .

فهناك أساليب في العربية وضوح إذْ فيها مفعولاً به أقوى من تقدير الظرفية فيها.

إن إذْ اسم، وما الذي يمنع من الاتساع فيخرج عن دائرة الظرفية إلى دائرة المفعولية؟ وأيهما أولى: اللجوء الى التقدير في الإعراب، أو الإعراب بدون تقدير؟

أعتقد أن النحويين وضعوا في أصولهم النحوية: أن مالا يحتاج إلى تقدير أولى مما يحتاج إلى تقدير.

فمن مجيء إذْ مفعولاً به قوله تعالى: «واذكُروا إذ كنتم قليلاً»(٤٠)، وقوله تعالى: «واذكروا إذْ أنتم قليل»(٤١).

ومع وضوح المفعولية في هاتين الآيتين نجد جمهور النحويين يقدرون فيقولون: «المفعول محذوف، وإذْ ظرف، عامله ذلك المحذوف، والتقدير: «واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم»(٤٢).

وتطالعنا آيات كثيرة في أوائل القصص تشتمل على إذْ بدون أن يسبقها عامل فيها، وأيسر إعراب لـ «إذْ» هذه أن تكون مفعولاً لفعل محذوف تقديره: «اذكر»، واختيار هذا الفعل بخاصة، لأن بعض الآيات القرآنية الأخرى التى اشتملت على إذ ذكر هذا الفعل قبلها كالآيتين السابقتين، والقرآن الكريم يفسّر بعضه بعضاً.

ومن الآيات التي تعْرب فيها إذْ مفعولاً للفعل «اذكر» محذوفاً.

أ ــ «وإذ قال ربّك للملائكة»(٤٣).

ب ــ «وإذ قلنا للملائكة» ، (٤٤).

جـ ــ «وإذ فرقنا بكم البحر» (٤٥).

وعلى الرغم من وضوح مفعولية إذْ في هذه الآيات فإن الجمهور يقدرون

أن إذْ في هذه الآيات ظرف لـ: «اذكر» محذوفاً، وليست مفعولاً به لهذا الفعل المحذوف.

وقد ردّ عليهم ابن هشام رداً فيه قوة الحق، وسلامة الدليل، ووضوح الحجة. قال: «هذا وهمٌ فاحش لاقتضائه حينئذ الأمر بالذكر في ذلك الوقت مع أن الأمر للاستقبال وذلك الوقت قد مضى قبل تعلق الخطاب بالمكلفين منّا، وانما المراد ذكر الوقت نفسه لا الذكر فيه»(٤٦).

على أن أبا البقاء أيوب بن موسى الحسينى اللغوى وضع الأمر في نصابه حينما بين أن إذْ في هذه الآيات التى أضمرت أفعالها مفعول به على سبيل التجوّز.

قال : «كل ماورد في القرآن: «وإذ» «فاذكر» فيه مضمر، أى اذكر لهم، واذكر في نفسك كيفما يقتضيه صدر الكلام، و«إذْ » منصوب به وعليه اتفاق أهل التفسير مع أن القول واقع فيه.

ولم يجعلوه ظرفاً له بل مفعولاً به على سبيل التجوّز مع أنه لازم الظرفية فعَدَلوا عن الحقيقة إلى المجاز، لعدم إمكان مظروفية المضاف إليه»(٤٧).

وكما تقع إذْ مفعولاً به قد تقع بدلاً من المفعول به، والمثال على ذلك قوله تعالى. «واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت»(٤٨)، فـ «إذْ » بدل اشتمال من مريم على حدّ البدل في: «يَسْأَلُونك عن الشّهر الحرام قتالٍ فيه»(٤٩) وقوله تعالى: «اذكروا نِعمةَ الله عليكم إذْ جعل فيكم أنْبِيَاء»(٥٠).

قال ابن هشام معلقاً على الآية الأخيرة: «يحتمل كون إذْ ظرفاً للنعمة وكونه بدلاً منها»(٥١).

هل تقع إذْ حالاً ؟:

قال السّيوطىّ في «معترك الأقران»: «وذكر بعضهم أنها تأتى للحال نحو: «ولاَ تَعملون مِنْ عَملٍ إلاّ كُنّا عليكم شُهوداً إذْ تُفيضُونَ فيه»(٥٢).

دراسة تطبيقيّة لأسلوب إذْ في القرآن الكريم :

يواجهنا المفسّرون في كتبهم المشهورة بتقديرات مختلفة لإعراب : «إذْ» التي تعدّدت في القرآن الكريم، ومن خلال هذا التعدّد اختلفت الأساليب وكثرت التقديرات. وعلى سبيل المثال نذكر طائفة من أساليب إذْ في القرآن الكريم مع توجيهات المفسّرين لها:

أ ــ من ذلك قوله تعالى :

«إذْ قالت امرأةُ عِمْران رَبّ إنّى نَذَرْتُ لك مافى بطني مُحرّراً». (٥٣)

قال الطبرسى في تفسيره: «في موضع» «إذْ قالت» أقوال:

أحدها: أنه نصب بـ «اذكر» عند الأخفش والمبرّد.

والثانى: أنه متعلق بـ «سميع عليم» [في الآية التى قبلها]، فيعمل فيه معنى الصفتين، تقديره: والله مدرك لقولها ونيتها إذ قالت. عن عليّ بن عيسى.

والثالث : أنه متعلّق بـ «اصطفى [فى الآية ٣٣]»، عن الزجاّج.

الرابع : أن «إذْ» زائدة فلا موضع لها من الإعراب عن أبى عبيدة. وهذا خطأ عند البصريين»(٥٤).

ب ــ ومن ذلك قوله تعالى :

«وإذْ قالت الملائكةُ يامُريم إنّ اللّهَ اصْطَفاك»(٥٥) قال الطبرسى: إذْ هذه معطوفة على إذ في قوله: «إذ قالت امرأة عمران» أو يكون معناه: اذكر إذ قالت الملائكة(٥٦).

جـ ــ ومن ذلك قوله تعالى :

«وماكُنتَ لَدَيْهِمْ إذْ يُلْقُون أقْلامَهُمْ»(٥٧).

قال أبو علىّ : إذْ في قوله : «إذْ يُلْقُون» متعلّق بـ «كنت»، كأنه قال: «وما كنت لديهم إذ قالت الملائكة»، وهذا إنما يجوز عندى إذا قدرت إذْ الثانية بدلاً من

الأولى، فإن لم نقدّره هذا التقدير لم يجز، وإنما يجوز البدل في هذا إذا كان وقت اختصاصهم وقت قول الملائكة ليكون البدل المبدل منه في المعنى»(٥٨).

د ــ ومن ذلك قوله تعالى :

«إذْ قال الله ياعيسى إنّى مُتوفّيك ورافِعُك إلىّ»(٥٩).

قال الطبرسى: العامل في إذْ قوله: «ومكَروُا ، ومكَر اللّهُ، والله خَيْر الماكرين»(٦٠) «إذ قال».

ويحتمل أن يكون تقديره: ذاك إذ قال الله، وتمثيله: ذاك واقع إذ قال الله، ثم حذفت: «واقع» وهو العامل في إذ، وأقيمت إذ مقامه»(٦١).

هـ ــ ومن ذلك قوله تعالى :

«وإذْ غَدَوْتَ مِنْ أهلِك»(٦٢).

قال الطبرسي: «العامل في إذ محذوف، وتقديره: واذكر إذ غدوت. وقيل: هو عطف على ماتقدّم في السورة من قوله: «قد كان لكم آية في فئتين التقتا»، [الآية ١٣ آل عمران] أى في نصرة تلك الطائفة القليلة على الطائفة الكثيرة إذ غدا النّبى صلى الله عليه وسلم. عن أبى مسلم.

وقيل العامل فيه قوله: «محيط»، وتقديره ــ والله أعلم بأحوالكم وأحوالهم إذ غَدَوْت من أهلك»(٦٣).

وــ ومن ذلك قوله تعالى :

«إذْ تُصْعِدون ولا تلْوُون على أحدٍ»(٦٤).

قال الطبرسى: قوله: إذ تصعدون» العامل في إذْ قوله: «ولَقَدْ عفَا عَنْكُم»(٦٥)

وقبل أن ننهى هذه الدراسة التطبيقية لـ «إذ» في القرآن الكريم نودّ أن نشير إلى أنّ الزركشى في «البرهان» بين لنا أنه: «حيث وقعت إذ بعد: «واذكر» فالمراد بها الأمر بالنظر إلى ما اشتمل عليه ذلك الزمان لغرابة ماوقع فيه، فهو جدير بأن ينظر فيه

وقد أشار الى هذا الزمخشريّ في قوله تعالى: «وأذكُر في الكتاب مَرْيَم إذ انْتَبَذَت»(٦٦)، وقوله : «واذْكُر في الكتاب إبْراهيم إنَّه كان صِدّيقاً نبيّاً إذ قال لأبيه»(٦٧).

كذلك نضيف إلى هذه الاشارة إشارة أخرى، وهى أن إذْ وقعت بدلاً في بعض الأساليب حيث وقعت بدلاً من المفعول به في قوله تعالى: «إذ انْتَبَذَتْ»(٦٨) حيث أعربت إذْ بدل اشتمال من مريم في قوله تعالى: «واذكر في الكتاب مريم»، وبعض آيات أخرى سبق ذكرها. ومع ذلك فإن إعراب إذْ بدلاً من «اليوم» في قوله تعالى: «ولن يَنْفَعَكُم اليومَ إذْ ظَلَمْتُم»(٦٩) يترتب عليه إشكال يحتاج الى حلّ.

وقد وفق ابن جنى الى هذا الحلّ حينما قال: «راجعت أبا عليّ مراراً في قوله : ولن ينفعكم اليوم إذْ ظلمتم» مستشكلاً إبدال إذْ من اليوم، فآخر ما تحصّل منه: أن الدنيا والآخرة متصلتان، وأنهما في حكم الله سواء فكأنّ اليوم ماضٍ»(٧٠).

إذْ الظرفية هل تدلّ على المستقبل ؟:

لم يصرح سيبويه في كتابه بوقوع إذْ دالّة على المستقبل، وكل ماذكره في شأنها: أنها لما مضى من الدهر.(٧١).

ومعنى ذلك أنّ إذ لا تستعمل عند سيبويه إلاّ ظرفاً لما مضى من الدهر. و يقرّر سيبويه حكماً أسلوبياً لكل الأزمنة الماضية في ضوء دراسته لـ «إذ» التي تدلّ على الزمن الماضى، فكل زمن في نظره أضيف إلى الجملة الاسمّية صحّ بناؤه، واستقام تركيبه إذا كان بمعنى إذْ ، ومالم يكن بمعنى إذ، فإن إضافته إلى الجملة الاسمّية خروج عن منطق الصواب، و بعد عن سلامة التركيب.

يقول سيبويه : «وسألته عن قوله في الأزمنة: كان ذاك زَمَنَ زيدٌ أميرٌ، فقال: لما كانت في معنى: إذْ على ماقد عمل بعضه في بعض، ولا يغيرونه، فشبهوا هذا بذلك، ولايجوز هذا في الأزمنة حتى تكون بمنزلة إذْ . فإن قلت: يكون هذا يَوْمَ

زيدٌ أميرٌ كان خطأ، حدثنا بذلك يونس عن العرب، لأنك لا تقول: يكون هذا إذا زيدٌ أميرٌ»(٧٢) و يضع. سيبو يه الحدود الفاصلة بين إذْ التى تدلّ على الماضى، وإذا التى تدلّ على المستقبل: أن الزمن إذا أضيف إلى الفعل أو الاسم كان في معنى إذ، لأنه وقع. أماً إذا لم يقع، فإن الزمن لايضاف إلى الأسماء، وإنما يضاف إلى الجمل الفعلّية.

و بهذا التفسير الواضح حدّد سيبو يه وظيفة إذ، كما حدّد وظيفة إذا حينما قال :

«جملة هذا الباب أن الزمان إذا كان ماضياً أضيف إلى الفعل، وإلى الابتداء والخبر، لأنه في معنى إذْ ، فأضيف إلى مايضاف إليه إذْ. وإذا كان لما لم يقع لم يضف إلاّ إلى الأفعال، لأنه في معنى إذا، وإذا هذه لا تضاف إلاّ إلى الأفعال»(٧٣).

واضح إذن من هذين النّصين أن إذْ عند سيبو يه لا تقع دالّة على الاستقبال. وتابع سيبو يه في هذا الرأى جمهور النحو يين.

ومع تحليل سيبو يه لمنع إذْ من الاستقبال، وهو تحليل له قوته ومنطقيته فإنّ بعض المتأخرين من النحو يين لم يوافقوا سيبو يه على رأيه، قائلين: إن إذْ تقع دالة على الاستقبال في بعض الأساليب.

قال ابن قاسم المرادى في كتابه: «الجنى الدانى» مشيراً إلى مذهب المتأخرين في دلالة إذْ على معنى الاستقبال، وأنها في هذه الحالة بمنزلة إذا، قال: «إذ يكون ظرفاً لما يستقبل من الزمان بمعنى إذا، ذهب إلى ذلك قوم من المتأخرين منهم ابن مالك، واستدلوا بقول الله تعالى: «فسوف يعلمون إذ الأغلال في أعناقهم»(٧٤)، و بآيات أخرى(٧٥) كقوله تعالى: «يومئذ تحدّث أخبارها»(٧٦).

ومن المؤيدين لوقوع اذ بمعنى الاستقبال ابن هشام، فقد احتج للمثبتين لـــ «إذ» معنى الاستقبال بقوله تعالى: «فسوف يعلمون إذ الأغلال في أعناقهم» قائلا: «فان «يعلمون» مستقبل لفظاً ومعنى لدخول حرف التنفيس عليه، وقد أعمل في إذْ، فيلزم أن يكون بمنزلة إذا»(٧٧).

ولم يسبق ابن هشام أحد يوضح رأي المانعين بقوله

«والجمهور لايثبتون هذا القسم، ويجعلون الآية [السابقة] من باب «وسمح في الضرر»(٧٨)، أعني من تنزيل المستقبل الواجب الوقوع منزلة ماقد وقع»(٧٩).

والرأي الذي أميل اليه هو جواز وقوعها موقع إذا الدالّة على المستقبل،لان الأدوات يقع بعضها موقع بعض لاعتبارات بلاغية تدرك من الموقف، وتتضح من السياق، و يشير اليها الأسلوب، يدلك على ذلك «أن الأمور المستقبلة لمّا كانت في إخبار الله تعالى متيقنة مقطوعاً بها عبّر عنها بلفظ الماضي»(٨٠).

إذْ الظرفية مضافة إلى الجمل :

سبق أن بيّنا أن إذْ الظرفية تضاف إلى الجملتين، الاسمية والفعلية، غير أن سيبويه يجعل الجُمَل المبدوءة بأسماء بعدها أولى من الجمل المبدوءة بأفعال. قال سيبويه «فتركت الأسماء بعدها على حالها، كأنه لم يذكر قبلها شيء فلم يجاوروا بها ما بعد، إذ كانت لا تغير ما دخلت عليه، فيجعلوا الاسم أولى بها من الفعل»(٨١)

وإضافة إذْ إلى الجملة إضافة لازمة، لأنها لا توجد في أساليب الكلام إلا مضافة

وإضافتها إلى الجملة الاسمية كقوله تعالى «واذْكُروا إذْ أنتم قليلٌ»(٨٢)

وإضافتها إلى الجملة الفعلية على النحو التالي

أ ــ جملة فعلية فعلها ماضٍ لفظاً ومعنًى.

مثل قوله تعالى «وإذْ قال ربُّك للملائكة»،(٨٣)، «وإذْ ابتلى إبراهيم ربُّه بكلمات»(٨٤).

ب ــ جملة فعلية فعلها ماضٍ معنًى لا لفظاً:

مثل قوله تعالى: «وإذْ تَقُول لِلذّى أنْعَمَ اللّهُ عليه، وأنْعَمْتَ عليه»(٨٥)

هذا وقد اجتمعت الجملة الاسمية مع الجملة الفعلية في مثاليها المذكورين في قوله تعالى: «إلاّ تنصروه فقد نصره الله إذْ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذْهما في الغار إذْ يقول لصاحبة لاتحزن»(٨٦).

قال ابن هشام محلّلاً إذْ في هذه الجمل:

«الأولى ظرف لـ «نصره» والثانية بدل منها، والثالثة، قيل: بدل ثان وقيل: ظرف لـ «ثاني اثنين». وفيهما، وفي إبدال الثانية نظر، لأن الزمن الثاني والثالث غير الأول، فكيف يُبْدل الثان منه؟

ثم لايعرف أن البدل يتكرر إلاّ في بدل الإضراب، وهوضعيف لايحمل عليه التنزيل.

ومعنى ثاني اثنين: واحد من اثنين، فكيف يعمل في الظرف، وليس فيه معنى فعل؟

وقد يجاب بأن تقارب الأزمنة ينزلها منزلة المتحدة، أشار الى ذلك أبو الفتح في (المحتسب)، والظرف يتعلق بوهم الفعل، وأيسر روائحه»(٨٧).

وفي مجال اضافة إذْ إلى الجمل، وأن هذه الإضافة لازمة أزال ابن هشام شبهة ورود إذْ في بعض الأساليب بدون إضافة إلى الجملة في الظاهر. قال ابن هشام: وقد يحذف أحد شطرى الجملة فيظن من لاخِبْرَةَ له أنها أضيفت إلى الفرد كقوله:

هل تَرْجِعَنَّ ليالٍ قد مضَيْنَ لَنا والعيشُ مُنْقلبٌ إذْ ذاك أفنانا(٨٨)

والتقدير: إذ ذاك كذلك.

وقال الأخطل:

كانت منازل ألاّف عهدتهم إذ نحن إذ ذاك دون النّاس إخوانا(٨٩).

«نحن» و «ذاك» مبتدآن حذف خبرهما، والتقدير: عهدتهم إخواناً إذ نحن متآلفون، إذ ذاك كائن.

ولا تكون إذْ الثانية خبراً عن نحن، لأنه زمان، «ونحن» اسم عين، بل هى ظرف للخبر المقدّر، و«إذ» الأولى ظرف لـ «عهدتهم».

وقالت الخنساء:

كان لم يكونوا حِمىً يُتَّقَى إذ الناسُ إذْ ذاك مَنْ عزَّ بَزّا(٩٠)

قال ابن هشام: إذْ الأولى ظرف لـ «يُتَّقَى» أو لـ «حمى»، والثانية ظرف لـ «بزّ»، ومَن: مبتدأ موصول لاشرط، لأن «بز» عامل في إذْ الثانية، ولايعمل ما فى حيزّ الشرط فيما قبله عند البصريين.

و«بز»: خبر «مَن» والجملة : خبر الناس، والعائد محذوف أى من عزّمنهم..

ولايكون إذْ الأُولى ظرفاً لـ «بز»، لأنّه جزء الجملة التى أضيفت إذْ الأولى إليها، ولايعمل شيء من المضاف إليه في المضاف، ولا إذْ الثانية بدل من الأولى، لأنها تكمل بما أضيفت إليه، ولايتبع اسم حتى يكمل.

ولا تكون خبراً عن الناس، لأنها زمان، والناس اسم عين، «وذاك»: مبتدأ محذوف الخبر، أى كائن، وعلى ذلك فقس»(٩١).

وإذا أضيفت إذْ الى الجمل الفعلّية، فإن كان الفعل مضارعاً حسن تقديمه وتأخيره تقول مثلاً: جئت إذْ يحاضر الأستاذ، فهى مضافة إلى جملة فعلية فعلها مضارع، وتقول: جئت إذا الأستاذ يحاضر، فهى مضافة إلى جملة اسمّية، وكلا الأسلوبين حسن، لايتميز أسلوب عن أسلوب، ولكن الأمر يختلف حينما تضاف إذْ الى جملة تشتمل على فعل ماض تقول مثلاً: جئت إذْ حاضر الأستاذ، فهى مضافة إلى جملة فعلّية فعلها ماض، وهذا الأسلوب مستساغ نحوياً، ولكن إذا قيل: جئت إذ الأستاذ حاضَرَ فإنه أسلوب ضعيف وإن كان جائزاً نحوياً. السبب في هذا أنّ إذْ ظرف للزمن الماضى، فإذا كان في الجملة المضاف إليها فعْل ماض

استحبّوا أن يلي إذْ، لأن إذ للماضي و«حاضَرَ» للماضي، فهناك اتفاق بينهما في الزمن، ومشاكلة بينهما في الماضي يقول ابن يعيش :

«وإذا كان الفعل مضارعاً حسن تقديمه وتأخيره نحو: جئتك إذ يقولون زيد، وإذ زيد يقوم، وإذا كان ماضياً لم يحسن تأخيره، لايكادون يقولن : إذ زيد قام، وذلك لأن إذ ظرف زمان ماض، فإذا كان معك فعل ماض استحبوا إيلاءه إياه لتشاكل معناهما»(٩٢).

ثانيا : إذْ بين الاسمية والحرفية

يذكر النحويون أن إذْ قد تخرج عن الاسمية لتكون حرفاً يؤدي ماتؤديه حروف المعاني، ومع ذلك فهم ليسوا على اتفاق على هذه الحرفية، لأن بعضهم يرى أنها لاتخرج عن الظرفية. وإذْ هذه لها معان عديدة منها:

أ ــ إذْ التعليلية :

يمثل النحويون لـ «إذ» التعليلية بقول الله تعالى : «ولن ينفعكم اليوم إذْ ظلمتم أنّكم في العذاب مشتركون»،(٩٣) أى ولن ينفعكم اليوم اشتراككم في العذاب لأجل ظلمكم في الدنيا»(٩٤).

وقد اختلف النحويون في إذْ هذه هل هي حرف أو اسم؟

ينسب السيّوطيّ في «معترك الأقران» إلى سيبويه أنه يرى أن إذْ التعليلية حرف (٩٥).

و يذهب آخرون : إلى أنها ظرف بمعنى:، وقت، والتعليل في رأيهم مستفاد من قوة الكلام وسياقه، وليس من لفظ: إذْ

قال السّيوطي عند ذكره لـ «إذ» التعليلية: «هل هى حرف بمنزله لام العلة أو ظرف بمعنى الوقت، والتعليل مستفاد من قوة الكلام لامن اللفظ ؟ قولان المنسوب إلى سيبويه الأول»(٩٦).